قراءة في ديوان (دمّون تبكي امرأ القيس) للشاعر جنيد الجنيد

لماذا جاء الديوان؟ وكيف كرم أرض الجنوب؟

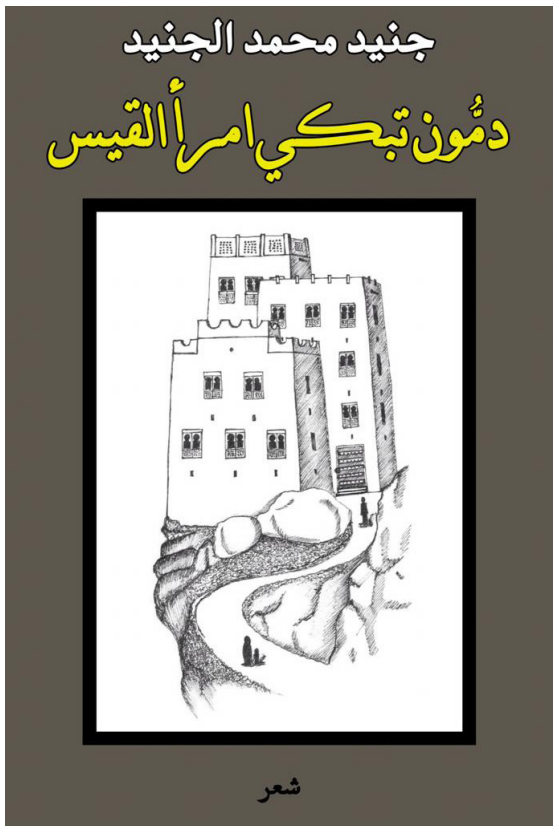

«الأمناء» قراءة/ أمين المَيْسَري:

أحسبُ أنّ هذا الديوان (دمّون تبكي امرأ القيس) للشاعر د.جنيد محمد الجنيد يضيف رصيداً آخر لتجربته الشعرية الكبيرة التي تجاوزت أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، ولستة دواوين شعرية مطبوعة، وهناك أعمال أخرى قيد الإنجاز.

ست عشرة قصيدة ضمها ديوان (دمّون تبكي امرأ القيس)، وأحسبُ – أيضا – أن هذا الديوان جاء تكريماً لأرض الجنوب الذي ما زال نبضه يجري في عروق كل جنوبي.

الجنوبُ
أغانٍ على مرفأ للسلام
وصوتُ المحبّة يعلو عَلى كل صوتٍ
وأنّ التسامح وشمٌ بكل القلوبِ
وأنّ التصالح رمزٌ تسامى
بأشجاره الفارعة
الجنوب
بلادٌ بخورٍ وفلٍّ ونخل
وما تشتهّي النفسُ في هذه الأرض..
أرضٌ بها نبضاتُ الهوى نابعة
الجنوبُ
الجنوب قضيّتنا الناصعة
الجنوب الذي يتدفّق بالرؤية الواسعة
الجنوب هو اللغة الحيّةُ اليانعة.
(الديوان ص20و21و22).

دعوني قبل أن أبدأ في قراءة القصيدة المسماة باسم الديوان لا بدّ أن أشيد بالشاعر جنيد محمد الجنيد على إخراج دواوينه بحلّة قشيبة جذّابة، فطباعة دواوينه أنيقة الجمال، وعالية الجودة، كأناقة شعره وروعته. كما أقدّم خالص شكري للمخرج الفني للديوان حسن أحمد بلجعد. كما أشيد بروعة أنامل – لوحة الغلاف- الفنانة المبدعة ابنة الشاعر المهندسة المعمارية (مريم).

قصيدة (دمّون تبكي امرأ القيس) وهي التي حملت اسم الديوان، تضعنا أمام عنوان لافت للنظر، أحسن الشاعر في اختياره، بل له أبعاده الدلالية، وإسقاطاته العصرية.

لقد اختلف مؤرخو الأدب العربي وتاريخه حول شخصية امرئ القيس، وجعلوه أشبه بالأسطورة. ولكننا نجمل شخصيته على النحو التالي: (هو امرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث بن عمرو بن حُجْر آكل المرار. أبوه صاحب الملك المتوارث في كنده، وجدّه قرين الملوك الصّيد من لخم وغسّان.

نشأ كما ينشأ مثله من أبناء الملوك، في بُلهنية العيش ونعومة الحال، ونال نصيبه الأوفر من اللهو والمجانة والفتون، والتفّ حوله الأحداث والفُرّاغ والمتبطّلون، وعاش معهم ما شاء الله أن يعيش، بين الصّيد والطّرد والغزل والشراب، ولم يُفِقْ مما فيه إلاّ على صوت مَنْ ينعَى له مصرع أبيه، فأراق الكأس، ونبذ الشراب، وفارق أخدان الصّبا والشباب، ثم حمل العداوة في نفسه، وآلى ألاّ يقرّ قراره، أو تنطفئ ناره، حتّى يأخذ بثأر أبيه من قاتليه بَني أسد.

وأخذ يتنقّل في القبائل، ويستنصر بالأفخاذ والبطون والعشائر، ولقيَ من صنوف الغدر وضروب الخذلان، وتنكّر الأصدقاء والخلان، ما أدّى به – كما يقول الرواة – إلى الاستنجاد بقيصر ملك الروم، فذهب وعاد حيث لقيَ حتفه في الطريق، ومات غريباً، دون أن يدرك ثأرَه، أو ينال مرغوباً) (انظر ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الخامسة دار المعارف/ مصر ص6 سلسلة ذخائر العرب24).

يستهل الشاعر الدكتور جنيد الجنيد قصيدته بتذكيرنا بملك ممالك حضرموت، التي كانت لها القدح المعلّى، التي أسرجت بخيولها العتيقة، وتصدّت لجحافل الغزوات شرقاً وغرباً، وضربت أروع الانتصارات منذ تاريخها العريق، ورسمت معلقة سامقة، ظلّت تاريخاً وإرثاً حضارياً نقشها شاعرها الفذ أمرؤ القيس. لكنّ (دمّون) مدينة أجداده وآبائه تبكيه منذ أضاع ملكهم:

تطاولَ ليلٌ علينا،
ودمّون تبكي امرأ القيس..
تبكي على طلل الملك..
من حضرموتَ ممالكُ أسرجتِ الخيلَ..
مرتْ على الغزوات البعيدةِ..
شرقاً وغرباً
وبين غبارِ الحوافر تتلو معلّقةْ
لسماءٍ مغلقة بالحنين لقافيةٍ
يشرئبُّ لها النّدماءُ
على ليلة ثملةْ
ودمّون تبكي امرأ القيس..
تبكيك يا صاحبي
وتعتصرُ الكأسَ
لم تبقَ من خمرة الغد شيئاً
فماذا تعدُّ لها اليومَ..
ماذا من الشعر هيأته للبنات اللواتي
يقفنَ على مدخل الحيِّ..
من سوف تلهو بها
وهل شذَكَ التوقُ
لابنة عمّك فوق الغديرِ
وهلَ تتذكّر ماذا فعلتَ
بفاطمَ حين دخلتَ إلى خدْرِها
وماذا تحسستَ في القلبِ
حين تطاولَ ليلٌ عليك؟
فقلتَ: لدمّون وجهٌ هُويّتها.

يتخذ الشاعر جنيد الجنيد امرأ القيس رمزاً سياسياً، وإسقاطات معاصرة. فهي قصيدة قيلت في رجل سياسي كبير يعيش بيننا، والشاعر يتخذ من هذا الرجل السياسي المعاصر انتماءه للمكان الذي ولد وعاش فيه الشاعر امرؤ القيس.

يبدأ الإسقاط المعاصر- وإن كان كما رأيته يبدأ من حيث يدخل امرؤ القيس خدر فاطمة وبدأت تضيق منه في هذا الخدر الذي لا يتسع لاثنين. وهو إسقاط على كرسي الحكم الذي يتسع لواحد فقط – من المقطع الثاني: الشاعر ما زال يخاطب امرأ القيس الذي لم يأبه بخيانة قيصر الروم وغدره. وذكر(أنقرة) هي إسقاط لصنعاء التي شنّت الحرب يوماً على عدن خاصة، والجنوب عامة:

ومشيتَ لتكملَ فينا معلقةً ثانية
وقلت: العواطفُ زادٌ لرحلتنا..
هل قرأتَ القصيدةَ من أول البيت
حين مشيتَ إلى الروم أمس بناَ
يا امرأ القيس؟
هل جرّكَ الحلمُ كي تكملَ الشعرَ؟
إن القصيدةَ في مسلخ الغدرِ منحورةٌ..
والطريقَ لملك أبيكَ مدثرةٌ
وانمحى ظلُّها..
فماذا يقولُ رحيلُ يديك إلى الروم؟
ماذا تقول لقيصرَ..
هل قيصرُ الروم لا يؤتمنْ؟
وماذا تقولُ لنا؟
فإنّ القصيدةَ في غربةٍ
ونحن على غربةٍ
وملكُ أبيكَ على غربة
وكلُّ غريب له في الغَريب نسيبُ
تؤازرُ منقاهما الحاسةُ السادسة
ودمّونُ لا تعرف الآن من أنقرةْ
سوى ما كتبتَ من الشعر..
أنقرة لم تزلْ أنقرةْ
وأنقرة أكلتْ أبجديتنا..
رمتْنا على سلة المهملاتِ

وأنقرة شنّت الحربَ يوماً علينا
وألقتْ بنا فَي الغياب
ودمّون لم يعشها الصبحُ بعدُ
ولم تحلب النوقَ بعدُ..
ولم تستظلْ بعدُ بالنخل..
ظلتْ مع الوقت حاسرةَ الرأس.

وكان ما كان، فدمّون هي عدن، أو حضرموت أو أي منطقة في الجنوب، وكانت أنقرة هي الغدر والخيانة.

القصيدة تنساب حزناً وألماً، ألفاظها، فيها من السلاسة والعذوبة، وفيها – أيضاً – معجم شعري متفرّد له بعده العميق. جاءت القصيدة على تفعيلة بحر(المتقارب) فعولن فعولن، وفيها من الأسطر المدوّرة.

ومن قصائد الديوان تقف قصيدة (الحصان) شامخةً – وهي قصيدة رمزية- صوّر فيها الشاعر مأساة ذلك الحصان الذي جاب فيها الأرض شرقاً وغرباً مزّهواً بصهيله وقوته وكبريائه، وهو يخطّ حافره الأرض، لكنّه في يوم ما خر منكسراً، لم يعد يقوى على الحياة، فكانت نهايته:

الحصانُ الذي كان في باحة الدار..
دار على زمنٍ ومضى
الحصانُ الذي كان يصهلُ بالعشق
أثقل صهوتَه الحزنُ وانكبّ في صمته
الحصانُ الذي كان يرعى على السهل
صام عن العشب..
عن كلّ ما أنبتته البراري
الحصانُ الذي كان يركضُ زهواً
من البحر للبحر،
أغفله ساحلٌ كان يمشي عليه
الحصان الذي كان ينظرُ في الأفق
أبعدَ من نجمة
لم تصلْ بعد للأرض بالضوء..
ألقى بأسراره للسماء
الحصانُ الذي خطّ حافرهُ الأرضَ..
فالتأمتْ..
خرّ منكسراً
الحصانُ الذي ضمّخَ الصدرَ بالكبرياء
توسّدَ أحزانَهُ
وانزوى
الحصانُ الذي..
إن عبارة (الحصان الذي كان)، وهي لازمة القصيدة من بدايتها وحتّى نهايتها، تعبّر عن أحداث قد مضت. أما موسيقى القصيدة فقد كانت على تفعيلة (المتدارك) فاعلن فاعلن فاعلن.

قصيدة (لنا أن نحب عدن) من القصائد الجميلة في الديوان، والشاعر جنيد الجنيد يعبّر فيها عن إعادة الاعتبار لمدينة عدن، التي أحبّها الشاعر كثيرا. فهي العشق والحب والقلب والجمال والرمل والساحل والدفء والغناء.. إلخ:

حزينٌ هو الوردُ فوق خليج عدن
وساحلُ عشاقنا يتوسدُه قلق الرمل،
والأمسياتُ تعيدُ لأيامنا قبلةً لنساء
تمرّغنَ بالفتنة العدنية عشقاً
نعيدُ لأسماعنا
كلّ ليلٍ مضى بين تلك الجميلة..
ما بين شيء يؤسسُ في القلب،
ما يجعلُ الروحَ فينا
على ألفة وهوى
نحن عشّاقُ وردٍ،
وعشاقُ رملٍ،
بذرنا عليه مغامرةَ الحبّ
هل ننتقي أجملَ القلبِ؟
حتّى تعود النوارسُ من هجرة الصيف،
تدفأ بين طمأنينة الوقتِ،
ما بين إقليمنا الحرّ
مَنْ يشعلُ الآن أوتارنا بالغناء
لنسمعَ فينا صدى واسعاً عبر ساحاتنا.

القصيدة جاءت على تفعيلة بحر(المتقارب) فعولن فعولن فعولن.

في قصيدة (على باب صنعاء) يقف الشاعر مشدوهاً بغرائب وعجائب لمدينة صنعاء التي عاشت وما زالت تعيش مغلقة على نفسها، لم تتبدّل، ولم تتغيّر منذُ أن تركها الأئمة. وكما قال الشاعر:

صنعاء لم تتبدّل.
ولم تتغيّر.
كما تركتها الأئمةُ حافيةً عند باب اليمن
وصنعاءُ فوضى
تعلّبُ آمالنا في صفيح قديمٍ
وصنعاءُ عمرٌ
تبعثر في أفق أجيالنا القادمة.

لقد كانت صَنعاء بالنسبة للشاعر هي الحلم الجميل، ولكنه حلم منكسر؛ لأن الأسوار التي حول هذه المدينة مغلقة، وأبوابها لا تنفتح مطلقاً، حتّى الشعراء لم يستطيعوا فتحها:

نجيءُ لصنعاءَ
نحملُ في سلة الحلم خمرتنا،
فتكسرُ جرتنا
وتتركنا..
سنيناً ونحن على عطشٍ صامتٍ
يتشرّبنا
سنيناً ونحن نحاولُ أن يفتحَ الشعراءُ
إمارتَهم حول هذي المدينة..
أن يجدوا منفذاً كي يؤدّوا وظيفتهم..
سنيناً وأسوارُ صنعاءَ مغلقةً حولنا
قديماً أتينا إليها، وقفنا على بابها،
كلّ شيءٍ على أمسها كان.

جاءت القصيدة على تفعيلة بحر(المتقارب) فعولن فعلولن.

في الديوان – كذلك – قصائد تفاصيل الحياة اليومية مثل قصيدة الجريدة، التي هي الغذاء الفكري لعامّة الناس وخاصتهم:

الجريدةُ شمسُ الحقيقةِ،
تبزُغُ في الصبحِ
ترفعُ عنوانها:
خبرٌ نابضٌ قلقٌ- مثل عادتها –
تستريحُ على جدلٍ واسعٍ
في رؤى ثرثراتِ المقاهي ومصطبة الأرصفة
يتجاذبها الناسُ من كلّ حدبٍ وصوبٍ
يجيئون في لهفة..
يرشفون الكلامَ المهيّأ فوق موائدِ صفحتها
قبل أن يرشفوا شايَهُم
ربمّا من هنا وهناك
يهبُّ على الروح ماينعشُ البالَ
ما يتدفّقُ من فكرةٍ في المزاج..
الجريدةُ..
ما يحملُ الآن طقسُ البلادِ
من الغيم والصحو،
ما يعقبُ البرقَ والرعدَ،
ما يتشكّلُ في هيئة الماء من شجرٍ باسقٍ..
مَا يتراءى لزهر السنابل
حين يطالعُ قوسَ قزح
الجريدةُ مرآةُ هذي الحياة،
بكلّ ملامحها.
هكذا كانت الجريدة حين يطالعها الناس في حياتهم اليومية، لكنّها أصبحت اليوم، كما يقول الشاعر:
الجريدةُ أيّامُنا..
كيف نقرؤها الآن.
إن الجريدةَ مثقوبةٌ بكلام الرصاص
جاءت القصيدة على تفعيلة بحر(المتدارك).

ومن قصائد تفاصيل الحياة اليومية أيضاً تبرز قصيدة(في ضفاف الأبد) قيلت في فتى يافع أطلق عليه الرصاص من قبل قناص، وهي من الأحداث اليومية التي شهدتها منذ سنوات:

قربَ بيتي..
تضيءُ دماءُ الفتى واجهات البيوت
وفي الكورنيش المواجه للبيت قناصةٌ
أطلقوا حقدهم في اتجاه الشجرْ
والبشرْ
وعلى الشرفات التي تحتفي بالقمرْ
أطلقوه على كل شيء..
على أحد كان.. أو لا أحَدْ
قربَ بيتي
فتى عنفُوَانُ ضوءٌ ياقوتة
فوق درب مما تقطّرَ منّه،
فتى كانَ أمس هنا
يافعاً، يانعاً، سَاطعاً،
رافعاً رأيةً للبلدْ
تسير القصيدة على تفعيلة(المتدارك).

ومن قصائده البيتية التي يمتعنا بها الشاعر الجنيد مع كل ديوان يصدره، تأتي قصيدة (حداد الناي) التي جاءت على بحر الوافر (مفاعلتن مفاعلتن فعولن):

على شجرٍ ينوءُ بلا حفيف
تعرّى الجرحُ في موج المَصيف
تبعثر في الشواطئ وَهجُ دربٍ
مساحتُهُ على غزلٍ عنيف
قرأنا في الرمال عَنْ انكسَارٍ
لوجه الطيف في لغة الطيوفِ
تفسّرُنا الرؤَى حالاتَ عشقَ
بدتْ ما بين أسماء الظروفُ
ودارتْ حولنا الأيامُ جمعاً
فنلقى العمرَ في الحلم الشفيف.

أما قصيدته (مراثيَ النُّمالة) فهي ملحمة شعرية كبيرة، وطنية سياسية بامتياز. أتمنى أن أفرد لها حيّزاً كبيراً في يوم ما.

إن ديوان (دمّون تبكي امرأ القيس) جديرٌ بالقراءة، وإضافة جديدة في خارطة الشعر الجنوبي والعربي.